مصر العربية
رئيس التحرير
عادل صبري

مشيناها خطى (1)

محمد المهندس

السبت, 13 سبتمبر 2014

تبقى السير الذاتية أحد أدوات قراءة التاريخ والاستفادة منه خارج زاوية التاريخ الرسمي المكتوب على أعين السلطة وموظفيها أو التابعين لها.

كما تبقى السير الذاتية وسيلة لقراءة تاريخ المجتمع وعلاقاته البينية وظروفه المعيشية التي غالبا ما يتجاهلها التاريخ السياسي الذي يهتم به دون سواه معظم المؤرخين السلطويين منهم أو المعارضين أو حتى المحايدين المقترضين.

تعاني ثقافتنا العربية من نقص شديد في كتابات السير الذاتية، حيث لم ينشغل بها إلا القليل جدا من الناس ومعظمهم من السياسيين الذين يحرصون أشد الحرص على أن يصدروا صورة ملائكية لحياتهم وما احتوته من قرارات وتوجهات.

لذا فإن قراءة سيرة ذاتية لإنسان خارج دائرة السياسيين تقرب القارئ أكثر من مجتمع انقضى بأشخاصه وأحداثه وبقيت آثاره في الزمن المعاصر سلبا أو إيجابا، كما أنها تعطي مساحة أوسع للحكم في ذات الوقت على سياسيين سابقين لا من خلال قرارتهم وأسبابها، ولكن من خلال آثار تطبيقاتها العملية على زاوية المجتمع التي أطل منها كاتب السيرة الذاتية.

(١)

سعدت خلال الأسبوعين الفائتين بقراءة السيرة الذاتية للأستاذ الجامعي المؤرخ رؤوف عباس، والتي حلقت بي لأعيش مع صاحبنا جزءا من تاريخ المجتمع المصري تحت الحكم الملكي، وحكم ثورة يوليو العسكري بإفرازاته المختلفة في عهود عبد الناصر والسادات ومبارك.

عشت مع الخطى التي مشيها الدكتور رؤوف عباس في طفولته في بورسعيد أمام معسكرات الإنجليز، ثم في حي من أحياء شبرا الفقيرة حيث كُتَّاب الحي ومدرسته الابتدائية، ثم في مدرستين للثانوي بطوخ بالقليوبية والشهداء بالمنوفية، ثم في جامعة عين شمس طالبا، ثم في جامعة القاهرة مدرسا، ثم في دروب الدنيا في اليابان باحثًا، وفي مصر ومراكزها البحثية والتاريخية في الأهرام ودار الوثائق وهيئة الكتاب وغيرها.

إنها رحلة ممتعة وكاشفة حقًا حين ترى المجتمع المصري بتنوعه في كل هذه الأماكن بعين فاحصة من جهة وفاضحة من جهة أخرى.

(٢)

اختار الدكتور رؤوف عباس أن يصف نفسه طوال الكتاب بـ "صاحبنا" دون أن يستخدم ضمير المتكلم (ويبدو أن هذا جزء من ثقافتنا التي تجعل عيبًا في حديث المرء عن نفسه)؛ إلا أنه رغم ذلك استخدم صراحة شديدة في الحديث بالاسم عن صفات وعيوب وأخطاء من عايشهم دون تورية أو خجل؛ فذكر أسماء ومواقف المتسلقين والمتملقين والمنتفخين والمستهترين، بمواقفهم السلبية التي كانت مع مثيلاتها والأجواء الميسرة لها أحد الأسباب الكبرى لتخلفنا الذي كان ولا زال.

لا شك أن هذه الصراحة ساعدت على إعطاء الكتاب مصداقية أكبر، كما أنها ساعدت القارئ على رؤية المشاهد بصورة أعمق وأوضح؛ إلا أنها فتحت على صاحب الخطى نارا كان في غنى عنها إن استخدم الرموز والصفات بدلا من استخدام الأسماء.

(٣)

يبدو أن مظاهر حياة البؤس والفقر التي عاشها معظم المصريين (ولا زالوا) مع صاحب الخطى في بدايات حياته قد كان لها دور كبير ومؤثر في قبول الغالبية العظمى من المصريين لحياة الذل والقهر التي يمارسها الحكام عليهم منذ عهد فاروق وحتى مبارك (وأخيرا السيسي)؛ فالتعليم في الكُتَّاب كان قائما على الاستظهار دون الفهم وعلى الضرب المبرح والإهانة بسبب أو دون سبب؛ على اعتبار أن شيخ الكُتَّاب حاكمًا بأمره يفعل بالأولاد ما يشاء وقتما يشاء دونما مراجعة من الأهل بل في ظل رضا كامل منهم لذل أولادهم وقهرهم.

كانت الطبقية وما يلحق بها من وساطة جزء لا يتجزأ من تركيبة المجتمع المصري (ولا زالت وإن أصبحت بشكل مختلف) فقد كاد المؤرخ أن يفقد فرصته في الالتحاق بالتعليم الابتدائي - بعد طرده من الكُتَّاب - رغم نجاحه في امتحان القبول لأن أباه لم يأت بـ"كارت" التوصية اللازم للالتحاق بالتعليم لولا تقدير الله بتوفير ذلك "الكارت" الطبقي من شخص سمع تأنيب والد صاحب الخطى المتكرر بسبب طرده من الكُتَّاب!

(٤)

كانت إحدى الكوارث التي فعلتها ثورة يوليو (التي يعتز بها صاحب الخطى) قيامها بإلغاء الأوقاف رغبة في تأميم المجتمع لصالح الدولة شديدة المركزية التي سعى إليها عبد الناصر ورفاقه، ثم ما لبث أن تهلهت تلك الدولة وتراخت في تقديم الخدمات للمجتمع في الوقت الذي منعت فيه المجتمع من سد ثغرات تلك الدولة أو البعد عن سيطرتها المفرطة التي قامت على متطلبات أمن النظام لا على احتياجات الناس.

تلقى د. رؤوف عباس تعليمه في مدرسة حنيفة السلحدار الابتدائية التي أوقفتها صاحبتها للإنفاق على تعليم فقراء المسلمين فقط (وإن كانت هذه سلبية تستطيع الدولة أن تمنع التمييز فيها)، وقد كانت - كما وصفها - تعد مدرسة بحق من حيث توافر النشاطات وتنوعها والجدية في أدائها، وهو ما يصيب بالحسرة إذا ما قورنت بالمدارس الحكومية التي صارت مع مرور الزمن وسوء الأداء قاعات للتجهيل لا للتعليم، وهو حال شبيه بجامعة القاهرة التي كانت مكانا للدسائس والتلاعب والعبث الأمني لا مكانا للبحث العلمي والتنشئة الجامعية - كما أسهب في ذلك صاحب الخطى - على عكس ما كانته في عهدها عندما كانت جامعة أهلية.

(٥)

على الرغم من أن د. رؤوف عباس يعتز بثورة يوليو وبزعيمها جمال عبد الناصر، إلا أن سيرته الذاتية أوضحت حجم الشعبوية التي كان يخاطب بها النظام الناصري مواطنيه، والتي لا تحمل مضمونا حقيقيا بقدر ما ترفع من شعارات رنانة؛ فالعمل الذي كان أحد شعارات المرحلة الناصرية أتى بالحاصل على ليسانس التاريخ ليعمل مراجعا ماليا بأحد المصانع بكفر الزيات، وبالحاصل على ليسانس الجغرافيا ليعمل مساعدًا لمستورد الكبريت، وبالحاصل على ليسانس الفلسفة ليعمل بقسم الأجور!

صدق صاحب الخطى هذه الشعارات ذات مرة؛ فأوقف عملية فساد مكتملة الأركان لعملية مضبوطة الأوراق، وعندما اعترض ورفع مذكرة لرئيس مجلس الإدارة بتفاصيل عملية الفساد، استدعى الرجل صاحبنا سائلا إياه عن سبب رفضه لاعتماد الأوراق رغم سلامتها الظاهرية؛ فقال له صاحب الخطى: "الشركة ملك الشعب وأنا واحد من الشعب ومن حقي أن أحافظ على مصلحة الشعب"؛ فقال له رئيس مجلس الإدارة مستنكرا:" يا بني انتم بتصدقوا الكلام الفارغ اللي بيقوله عبد الناصر؟ ده عاوز بس يضحك على الناس.. امشي شوف شغلك وخليك في حالك".. غلي الدم في عروق صاحبنا المصدق للشعارات، وأرسل شكوى لعبد الناصر شخصيا ذكر فيها ما حدث وركز فيها على ما قاله رئيس مجلس الإدارة بحق الرئيس عبد الناصر، ثم فوجئ صاحبنا بعد ثلاثة أسابيع بالرسالة في يد المشكو في حقه شخصيا ثم قائلا له: "عرفت إن عبد الناصر بيضحك على المغفلين اللي زيك.. إحنا ردينا بأن الشكوى كيدية لأنك موظف مهمل.. وعلى فكرة مخصوم منك خمسة أيام وعندك حرمان من العلاوة الدورية.. ابقى خلي عبد الناصر ينفعك"!

عرف بعدها صاحب الخطى أن رئيس مجلس الإدارة محمد شفيق حنطور هو من أخوال شمس بدران، وأن ذلك هو الطبيعي في القطاع العام!

(٦)

أكمل جوانب أخرى من السيرة الذاتية للدكتور رؤوف عباس التي سردها في" مشيناها خطى" في الأسبوع القادم بإذن الله.

http://www.masralarabia.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA/201-%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%87%D9%86%D8%AF%D8%B3/353921-%D9%85%D8%B4%D9%8A%D9%86%D8%A7%D9%87%D8%A7-%D8%AE%D8%B7%D9%89-1